## (البحوث والدراسات)

# اللغة العربية حصن الأمّة

**الدكتور مازن المبارك**

**عضو مجمع اللغة العربية بدمشق**

كانت العربية وما زالت تواجه الكثير من الهجوم والطعن والإهمال ومزاحمة الضرائر من عاميّات وأجنبيّات. وليس ذلك بغريب من أعدائنا لأنهم أعداء، ولأنهم يدركون حقيقة اللغة ومدى أثرها في تحصين الأمة وشدّ أسرها. وليس ذلك من عجز في اللغة نفسها، فقد أثبتت قدرتَها منذ وَسِعت كتابَ الله واتّسعت لعلوم الحضارة يوم كان أهلها يصنعون الحضارة. وأما الإهمال من أهلها، فيما أرى، فمن عدم إدراكهم منزلتها في حياة الأمّة، ومن تقصير المختصّين في نشر الوعي اللغوي السليم. وإن كنّا اعتدنا أن نلقي اللوم في أكثر مشكلاتنا على أعدائنا وعلى الاستعمار تارة، وعلى اللغة نفسها تارة أخرى، مبرّئين أنفسنا من كل وزر أو تقصير.

اللغة كائن حيّ متفاعل مع الحياة بتفاعل الناطقين بها مع الحياة، بقوّتهم يقوى ويحيا وينتشر، وبضعفهم يضعف وينحسر.

واللغة ذات جوانب متعدّدة: فهي حادثة طبيعيّة فيزيائية لأنها أصوات، وهي حادثة نفسيّة فكريّة لأنها الثوب الذي يلبسه أو يظهر فيه الفكر، وهي حادثة اجتماعية لأنها وسيلة الفهم والإفهام بين الناس.. وهكذا كثرت تعريفاتها بكثرة جوانبها إذ تناول كل تعريف جانبًا منها، وهي تعريفات لا يكفي واحد منها لبيان حقيقة اللغة، ولكنها لا تَعارض بينها، بل هي متكاملة يُتمّ بعضُها بعضًا. فهي

أصوات يعبِّر بها الناس عن أغراضهم، وهي الفكر الناطق، وهي وسيلة التواصل الاجتماعي، وهي منظومة عُرفية لرموز تعبّر عن نشاط اجتماعي...

وتختلف مواقف الناس من اللغة باختلاف نظراتهم إليها وباختلاف الجانب الذي وقفوا عنده منها؛ فمن رآها مجرّد أصواتٍ للتعبير أو أداةٍ للتواصل الاجتماعي رأى الأصوات أيًّا كانت ، أي بأي لغة كانت ، صالحةً للقيام بعملها وأداء وظيفتها، فلا عليه أن يستبدل بلغته لغةً تقوم مقامها. وهكذا كانت مواقف الناس من اللغة مختلفة باختلاف نظراتهم، واختلاف مدى مبلغهم من العلم فيها وإدراكِ حقيقتها ولم تكن المواقف المنحرفة كلّها عن سوء نيّة وقصد، لذلك كان على اللغويين والمختصّين أن ينشروا الوعي اللغوي السليم، ليستبين الناطقون بالعربية أهميتها وآثارها في حفظ ثقافتهم وبناء أمتهم.

لقد هُوجمت العربية نظريًّا بالطعن فيها صعوبةً في قواعدها وإملائها، وفقرًا في المصطلح، وعجزًا عن مجاراة العصر، وهُوجمت عمليًّا بمحاولة تغليب العاميّة في كثير من الأقطار العربية وملء الصحف والشوارع بها، وبتغليب الأجنبية ومزاحمتها بها في التعليم العالي وفي مجال الاقتصاد والسياحة. لقد دعا مسؤول في بلد عربي إلى جعل أسماء الفنادق والمطاعم والمحالّ التجارية باللغة الأجنبية تيسيرًا على السيّاح! وادّعى آخر أن فرض العربية في الأسواق مضرّ بالاقتصاد والسياحة. ونحن نرى في ذلك قصورًا في إدراك الحقيقة وانحرافًا عن الثوابت القومية، لأننا حين ننادي بتعريب الأسماء على اللافتات في الشوارع والأسواق لا ندعو إلى عدم الكتابة بالأجنبية عليها. إننا ننادي أن تكون العربية في بلادها مشاركة للأجنبية. فهل أنا في ذا يالهمذان ظالم ؟؟!

إننا إذا تمنَّينا اقتصادًا ناجحًا وسياحة مزدهرة، فلا يصحّ أن نعادل الجنيهات والدراهم والليرات بالرمز الوطني والانتماء القومي. لقد أصبحنا نسمع أن اللغة الإنكليزية هي اللغة العالمية في التجارة والاقتصاد والسياحة، وصحيح أنها اللغة الغالبة، ولكن فرق كبير بين تشجيع ذلك والسير في ركابه، وبين الحذر ومحاولة الحدّ من ذلك على نحو ما فعلت بعض الدول الأوربية الحريصة على لغاتها، فاتخذ قادتها في قمة عقدت منذ سنوات في برشلونة أن يُترك للطلاب في دولهم حريّةُ اختيار اللغة الثانية بعد لغتهم الوطنية بعد أن كانت الثانية هي الإنكليزية، وأعلنوا أنه يكفي أن يدرس الطلاب دورة مكثفة في ثلاثة أشهر اللغةَ الإنكليزية في مجال النقل الجويّ والبحري والاتصالات، وهو ما يحتاجون إليه للاتصال بالعالم. ولم تجعل دولة من دولهم أسماء فنادقها ومطاعمها ومؤسساتها التجارية أسماءً بغير لغاتها.

إنهم شعروا بمقدّمات العولمة التي تريد أن تفرض مع الدولار لغته في الاقتصاد، وأن تهمِّش اللغاتِ المحليّةَ والقومية، لأن ذلك يتبعه تهميش للثقافة ثم للفكر ثم للمواقف.

الأمة ليست أمّة بمالها ولكنها أمة بهويّتها الثقافية، وهويّة الإنسان هي مجموع الصفات الثابتة التي تميّزه من غيره. ولكل أمّة عريقة هوية ثقافيّة، واللغة هي باب الثقافة وعمادها وأداة وحدتها، ولا وحدة بين الناس إلاّ إذا توحّدت أو تقاربت ثقافتهم وتوحّدت أو تقاربت أفكارهم، واللغة هي المدخل إلى وحدة الثقافة ووحدة الفكر، والثقافة والفكر هما العاملان اللذان يُمليان على المرء مواقفه، ومن هنا كانت للأمة ذاتِ الثقافة الواحدة والفكر المشترك مواقفُ متفقة أو متشابهة.

اللغة تنسب الإنسان إلى قومه، والعربية اليوم هي نسبنا إلى قومنا بشرًا وتاريخًا، وإلى أرضنا وطنًا وحدودًا؛ فحدود الوطن العربي اليوم هي حدود الناطقين بالعربية

الفصحى، وكل شيء ما بين المحيط والخليج مختلف إلا اللسان فهو وحده اليوم مظهر الوحدة.

العربية اليوم هي التي تصلنا بتاريخنا زمانًا وبإخواننا العرب المعاصرين مكانًا، إنها رابطة بين العرب وحدود لوطنهم وسجل لتاريخهم ورمز لوحدتهم.

فإذا قسَّموا وطننا إلى أوطان وأقطار، ومزّقوا أرضنا فجعلوا فيها دولاً ودويلات، أفنقسّم نحن اللغة الواحدة الباقية إلى لغات ولهجات لنستكمل تقسيم الأمة إلى أمم؟!

العربية وعاء حوى تراثنا، ثقافتنا، تاريخنا، عقيدتنا. لم نعرف ذلك كلّه إلا من خلالها، إنها أشبه في الأمة بالذَّاكرة للإنسان، إنها ذاكرة الأمّة أفنتخلّى عنها وكلنا يعرف حال الإنسان أيًّا كان ماضيه إذا فقد ذاكرته!

إن أهم ما تسعى إليه العولمة هو القضاء على خصوصيّات الأمم والشعوب في كل شيء، واللغة القومية من أخصّ خصائص الأمة، لأنها وعاء ثقافتها ورمز استعلائها وتَميّزِها القومي. وهم يريدون تفريغ هذه الثقافة من مضمونها الروحي والفكري والأدبي والفنّي، وحشوَ وعائها بمضمون حداثي، إذا لم يكن خاويًا من العروبة والإسلام فهو بعيد عما عرفته أمتنا من فكر وأدب وفنّ، بل هو مصوغ بقوالب لغوية تنكرها العربية لخروجها عما ألفت من أصول.

إذا ربطنا الأحداث بعضها ببعض، وتركنا المنهج العربيّ الحديث والمعاصر في التصدّي للمشكلات، وهو المنهج القائم على عدم التخطيط السابق وعلى انتظار الخطر حتى يقع، وعلى ردود الأفعال الانفعالية حين يقع الحدَث، إذا تركنا ذلك كله ونظرنا إلى منهج غيرنا في التغلّب علينا فماذا نرى؟ إنهم لا يبالون أن تتحقق غايتهم

بعد خمسين أو مئة سنة! أليست العولمة كلمة حديثة السنّ في عصرنا؟ فلننظر إلى التخطيط لتنفيذها كيف ومتى بدأ؟ لقد بدأت عمليًّا زحفَها فاتحةً أمامها الطريق بالدولار، حتى أصبح نقدًا عالميًّا بل النقدَ العالمي الذي تبيع الدول به وتشتري، ثم بدأ اقتصادها يزدهر ويسيطر، وأصبحت لها المصارف وبيوت المال، ثم ربطت سياستها بها، فلا قروض ولا مساعدات مالية إلاّ لمن يبيعها موقفَه السياسي الممالئ لها، فخضع لها من خضع وأبى وصمد من صمد، وأدخلت اللغةَ مع الدولار فسادت لغتُها حيث ساد، حتى شعر الكثيرون بالخطر فغيّروا الوحدة النقدية كما فعلت أوربا، أو فكّوا ارتباط نقدهم بالدولار كما صنع غيرها، تململاً من أسر القيد النقديّ وما وراءه من تبعات العولمة!

أقول ذلك كلَّه وأتحدّث عن التدرّج في زحف الخطر، لئلا نستصغرَ ما نراه من زحف العاميّة وخلط الأجنبية بالعربيّة تظرّفًا على ألسن فتياننا وفتَياتنا... دون إدراك منهم لبلوى ستعمّ ولعواقب ستتلو، حين يصبح ذلك كلُّه عادة اجتماعية مألوفة...

إننا نرى الأمم المتقدمة اليوم تتعصّب للغاتها تعصّبًا وصل ببعضها إلى أن أصبحت ذات نزعة عرقيّة لغوية لم يعرفها العالم قبل اليوم. ولو تتبّعنا ما تقوم به ألمانيا وما تقوم به فرنسا لصيانة لغتيهما لعرفنا خطر ما نفرّط فيه نحن اليوم من أمر لغتنا.

دعا فلاسفة الألمان إلى أن يتمسّك الألمان بلغتهم تمسّكهم بأرواحهم!

وعقد الفرنسيون المؤتمرات وأصدروا المراسيم المتتابعة لحماية لغتهم، وأقاموا منظمة متحدة للناطقين بالفرنسية لها أمانتها العامّة ومكاتبها ومراكزها المنتشرة في العالم، ووضعوا الغرامات على من يستعمل كلمة بغير الفرنسية، ومنعوا إعلامهم من استعمال اللهجات المحليّة... وأما نحن العربَ فشعارات قومية وبعضُ صحفنا تنشر

بالعاميّة، وأسواقٌ تغلب عليها العجمة واللغة الأجنبية، وتدريسٌ في التعليم العالي بغير العربية في معظم الأقطار العربية، وليس في العالم كلّه أمة تدرّس في تعليمها العالي بغير لغتها إلاّ العرب!!.

وليس في العالم دعاة إلى الوحدة بعدد الدعاة العرب، وليس في العالم خطاب يعدل خطاب العرب الوحدوي، ولا أحزابٌ وحدوية بعدد ما في الوطن العربي من أحزاب وحدوية، ومع ذلك فما زال العرب مقصّرين في رعاية لغتهم وأداة وحدتهم، وإنَّ كلّ دعوة إلى الوحدة تبقى ناقصة إذا لم تكن فيها رعاية للغة الجامعة الموحِّدة، وصيانة لها، وعمل على تنميتها وجعلها لغة العلم والتعليم. إن جعل العربية لغة العلم يفيد العربية نفسها، ويمحو ما علق بها من كونها لغة أدب وعاطفة وانفعال، ويُغلِّب في أساليب الناطقين بها أسلوبَ العلم والمنطق وهو ما نحتاج إليه اليوم. فلقد غلبت على الخطاب العربي في التصريحات والبيانات السياسية في كثير من الأحيان، وفي الخطاب السياسي عامة، لغةُ العاطفة والانفعال في مخاطبة الشعوب والجماهير. ويجدر بي هنا أن أذكر تلك الدهشة وذلك الإعجاب اللذين قوبل بهما أول خطاب ألقاه رئيس الجمهورية الدكتور بشار الأسد عقب بيعته الأولى، وأن أذكر ذلك الصدى الطيّب الذي كان له محليًّا وعربيًّا ودوليًّا؛ فلقد سمع العرب وسمع العالم من العرب خطابًا ذا نكهة خاصة؛ إنها صبغة العلم والعقل والتحليل والمنطق يلبسها لأول مرة خطابٌ سياسي لحاكم عربيّ.

وإني أسوق إلى السيد الرئيس بهذه المناسبة أصدق الشكر لتوجيهاته الأخيرة من أجل التمكين للعربيّة والعمل على حمايتها.

إنّ اللغة العلمية تطبع الفكر بطابع التفكير المنهجي العلميّ، وإنّه شتان مابين من يعلّم اللغة فيملأُ نفوس الطلبة والشباب بما في تراث الأمة من قيم، وينمّي في

عقولهم التفكير العلمي فيجعل من المدارس والجامعات مصانع للرجال والنساء، وبين من يعلّم اللغة لأنها مقرَّر مطلوب في الامتحان!! لا يهمّه بعد ذلك كيف تكون اللغة عاجزة على لسانه وقلمه في الحياة، أو سلوكًا فكريًّا يسير به على درب أمّته.

حين يكون تعليم اللغة رسالة تصبح اللغة أداة لوحدة الشعور القومي وتمكين الانتماء إلى الأمة وتراثها وتاريخها.

إن اللغة بكونها أداة تفاهم بين أبناء المجتمع الواحد، وبكونها وسيلة تفكير وأداة تعبير، تخلق وحدة ثقافية تشكِّل رابطة لأبنائها الناطقين بها، وتفرض بعد ذلك سلوكًا متشابهًا فيما بينهم، لذلك كان الذين يخرجون على نظام اللغة وتقاليدها، إنما يمثّلون الشذوذ أو الانحراف عن سلوك مجتمعهم وأمتهم التي وحّدتها اللغة الواحدة الموحَّدة التي تعارفت الأمة أصولَها وتقاليدها عبر تاريخها الطويل.

لقد أثبت تاريخنا شعوبيّة أولئك المنحرفين، بل لقد عرفناه في تاريخنا المعاصر، فلقد قلت منذ خمس وثلاثين سنة إن الانحراف اللغوي ظاهرة – إن كانت من عالم أو مثقَّف – فهي تدل على نيّة خفيّة في الانحراف السلوكي، وإن الذين يخرجون عن الإجماع اللغوي أعني عن أساليب اللغة القومية وأصولها هم في الحقيقة خارجون عن الإجماع القومي لأمّتهم!

وها هي اليوم أحداث لبنان تُظهر أن كل الذين أشرتُ إليهم من دعاة للعامية اللبنانية، ومن مُنادين باستعمال الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي، ومن داعين إلى التخلّي عن قواعد اللغة وتحطيم أصولها والتمرّد على أساليبها، هم الذين كشفت أحداث لبنان اليوم مواقفهم الشاذّة وكشفت القناع عن عداوتهم للعروبة!!

ونحن لسنا بدعًا بين الأمم حين نطالب بالتمسّك باللغة الفصيحة؛ فلقد دعا الفيلسوف فخته أمته الألمانية حين غزا نابليون ألمانيا وجزّأها، إلى التمسّك باللغة الألمانية الواحدة قائلاً: «إن اللغة تجعل الأمة الناطقة بها موحَّدة مُتراصَّة، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الأجسام وعالم الأذهان». ودعت الثورة الفرنسية في أوائل بياناتها إلى محاربة العاميّة والتمسّك باللغة القومية، وأذاعت على لسان الراهب غريغوار بيانًا قالت فيه: «إن مبدأ المساواة الذي أقرّته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظّف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم الإدارة إلى أشخاص لا يُحسنون اللغة القومية يؤدي إلى محاذير كبيرة، وتَرْكُ هؤلاء خارج ميادين الحكم يخالف مبدأ المساواة، فيترتب على الثورة – والحالةُ هذه – أن تُعالج المشكلة معالجة جذرية وذلك بمحاربة اللهجات المحليّة ونشر اللغة الفرنسية الصحيحة بين جميع المواطنين».

وأنقل لكم شهادة مستشرق فرنسي عاصرناه وعرفناه، وسمعناه يتحدث عن العرب والمسلمين، ويتحدث عن الثورة الجزائرية التي عاصرها، إنه جاك برك الذي قال: «إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا. إن الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً قويًّا في بقاء الشعوب العربية».

واللغة ليست ثوبًا يلبسه من يريد ويخلعه من يريد، إنها لغة الثقافة التي تمثّل الأمة، بل ليست لغتَها فحسب بل هي فكر من فكرها وجزء من عقلها وعقلِ الأمة الناطقة بها، والثقافة بما تمثّله من فكر وأدب ودين وفنّ هي العقل المشترك والأساس الذي تُبنى عليه وحدة الأمة، واللغة هي النظام الشامل لتلك الثقافة.

ويشهد للغة العرب تاريخُها على أنها كانت وحدتها أقوى من وحدتهم السياسية، فلقد استعصت على التجزئة وبقيت واحدة موحَّدة حين انقسموا وتفرّقوا في دويلات عباسية وحمدانية وإخشيدية وفاطمية وغيرها...

والعربية الموحَّدة هي وحدها العربية الموحِّدة، لأنها تحدّد المفاهيم وتوحِّد المدركات وتجسّد الأفكار والقيم، وبذلك يتمّ الانسجام فيما بين الناطقين بها... وفيما بينهم وبين ما حولهم من عناصر الحياة، إنها توحّدهم عقلاً وثقافة وفكرًا وسلوكًا.

إن العربية ظاهرة وحدة وعاملة وحدة، ولابدّ أن نسعى إلى تنشيط دورها الوحدوي، وأن نبتعد بها عن العاميّات المفرّقة وعن الأجنبيّات المزاحمة تاركين كلاًّ منها في مجالها، جاعلين المصلحة القوميّة العليا فوق كل اعتبار.

حين أقول إن اللغة المشتركة تصهر الفرد في المجموع أي تقوّي انتماءه القومي، فإني أعني أنها لطول استعمالها ولشدّة ألفتها واعتيادها ولطول ممارسة المرء للتعبير بها عن وجدانه ومواجده، وعن شعوره وعواطفه وعن عقيدته وأشواقه، وعن أدب أمّته وتراثها وعن حاجاته في حواره مع نفسه ومع أهله وأهل وطنه، لا تلبث أن تنأى عن الزمان وعن المكان لتصبح شعورًا روحيًّا يملأ الإنسان اعتزازًا بكل ما تعبرّ عنه لغته في حاضره وماضيه ومستقبله، وكأن الفرد إذ ذاك يعيش من اللغة بروح هي روحه وروحُ أمّته في آن واحد، وذلك هو المعنى الذي نعبّر عنه بالشعور أو الانتماء القومي الذي تغرسه اللغة في نفوس الناطقين بها، لذلك كانت المحافظة على اللغة محافظة على الجنسية القومية والفكرية والثقافية للأمّة.

وهكذا رأينا في اللغة صورة الفكر ومرآة الشخصية ورمز الهويّة، ورأينا الهوية الصفة المميِّزة للفرد، والصفة المشتركة للأمّة تعبّر عما يميّزها من خصائص في الفكر والثقافة وما يكوّنها من علم وعقيدة وأدب وفنّ ومكوّنات حضارة. ولقد رأينا أن اللغة ذاكرة الأمة وإطار حدودها ومرآة فكرها، ومستودع تراثها وجامعة أبنائها ومصنع رجالها، بما تغرس فيهم من قيم ومثُل وأساليب تفكير، ورأينا اللغة هويَّة تعصم الأمة من الضياع وتحول دون ذوبانها في العولمة، وذلك كلّه هو الذي يجعل الهجوم على اللغة شرسًا عنيفًا؛ إبعادًا لها عن التعليم العالي ومزاحمة لها بالأجنبية في كل مكان، وبالعاميّة في الشوارع والأسواق، وإهمالاً لها في بعض الصحف ووسائل الإعلام!

إن الهوية الثقافية للأمة هي التي تحفظ لها وعيها بذاتها وبتاريخها، وإن اللغة هي عماد الهوية الثقافية المتميّزة، وهي ما لا تكون الأمة أمةً إلا به، لذلك كله نقول إن اللغة حصن الأمة، والدفاع عن اللغة دفاع عن حصون الأمة ودفاع عن حدود الوطن.